جني واشارته(١٢) . كما انه عد هذه الابيات شاهداً على اجادة المعنى واجادة اللفظ معاً لاكما ذهب ابن قتيبة في جعلها ضمن الضرب الثاني من اضرب الشعر التي جادت الفاظها ولا معاني شريفة لها .

ونعود الى اضرب الشعر التي قسمها ابن قتيبة فيكون الضرب الثالث منه :

٣ . ضرب جاد معناه وقصرت الفاظه عنه .. كقول لبيد :

ماعاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

وهو يدرج تحت هذا الضرب الابيات التي تحمل معاني الحكمة او ما اسماه بالمعاني الجيدة الشريفة الا انه احس ان لاروح شعرية فيها ولا جمال فنيا فيها . تفهم هذا من عبارته (فأنه قليل الماء والرونق) وهذا يذكرنا بشرط الجاحظ الرابع الذي وضعه للنص الجيد (كثرة الماء) .

٤ . اما الضرب الاخير فهو الذي افتقدت فيه الشواهد والاشعار الى جودة المعاني وجمال الالفاظ وتندرج تحته كل الاشعار الرديئة واذا كان ابن قتيبة قد حكم المعاني والالفاظ في تصنيف الاشعار ضمن هذه الاضرب الاربعة بسبب تبنيه لفضل المعاني على الالفاظ فأن له اراء اخرى مهمة جداً بحث فيها عن دوافع الشعر والاوقات التي ينشط فيها الشاعر وتشحذ قريحته مما عدفيها من اوائل المؤلفين الذين اولوا هذا الموضوع اهمية كبيرة .

القديم والحديث :

تعد الاراء النقدية التي سجلها ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) من الاراء المهمة التي استطاع تسجيلها والدفاع عنها وتبنيها وقد تجاوز فيها ابن قتيبة الاكتفاء بنقل آراء غيره الى اختيار الاراء النقدية التي توافق رأيه والدفاع عنها . وتوضيحها وتفصيلها . ومن بين هذه الاراء رأيه في القديم والحديث من الشعر . وحديثه عن بنية القصيدة العربية وتقاليدها وبواعث الشعر وحوافز القول فيه .

---

(١٢) دراسات ٢٢٤

ان مسألة الصراع بين القديم والحديث في الشعر من المسائل التي شغلت بال النقاد والادباء قديماً وحديثاً . وبدأت اول ما بدأت في جهود العلماء واللغويين الذين اندفعوا بحماس لجمع الشعر العربي القديم وروايته وتوثيقه حرصاً منهم على سلامة اللغة العربية وحفظ شواهدها وقد تجاوزوا فيه الاعجاب الى التعصب للقديم والخصومة لكل ما هو حديث بغض النظر عن مقدار اجادته او اجماله . وهناك روايات كثيرة طريفة تعترض القارىء حين يدرس الجهود النقدية لدى علماء اللغة . ورواة الاشعار في نهاية القرن الاول والقرن الثاني(١٣) . وكان صوت الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في الدعوة الى تقدير الجيد من الاشعار بغض النظر عن قدمها او حداثتها صوتاً جديداً مبعثه طبيعة الشعر المحدث الذي فرض نفسه واختط مكانه بين الاشعار العربية القديمة فضلاً عن فكر الجاحظ النير الذي ابتعد فيه عن التعصب وتحكيم الهوى . وجاء بعده ابن قتيبة متأثراً بارائه مردداً لكثير منها(١٤) . وبرزت مسألة القديم والحديث امامه وهو يتصدى لتأليف كتاب في الشعر والشعراء اقامه على رأيه الواضح في مسألة الصراع بين القديم والحديث وان جودة الاشعار هي التي تفرض نفسها عليه . وهي مقياسه فيما يختار ويترجم . ووعد منذ البداية بالا يتأثر باراء غيره ولا مناهجهم في التأليف . والنظر في الاشعار . ففكرة تأليف في الشعر والشعراء وحدها هي موقف نقدي له مدلوله .. وان تأليف الكتاب للبحث عن الجودة والفنية بما يتأثر فيها بالنزعة البدوية التي كان شيخها ابن سلام في طبقات الشعراء(١٥) .

وتبدو اهمية رأي ابن قتيبة في هذه المسألة لامن حيث كونها تفصيلاً لرأي الجاحظ السابق وانما من حيث تبنيه لها وتطبيقه لدعوته من خلال كتاب ترجم فيه للمحدثين جنباً الى جنب مع الشعراء الجاهليين والاسلاميين والامويين .

وضع ابن قتيبة مقياس الجودة اساساً لاختيار الاشعار والترجمة لاصحابها ملغياً بذلك عدة مقاييس كانت تحكم غيره من المؤلفين والرواة . وتسيطر على اهوائهم وتوجههم فيما يختارون ويروون . وبين منهجه في المقدمة مما يمكن ان يسجل بما يلي : ـ

---

(١٣) راجع الفصل الثالث

(١٤) انظر تأثر ابن قتيبة بآراء الجاحظ في تاريخ النقد ١٠٥ وتبنيه لارائه وطريقته في الدفاع عن العرب ضد الشعوبية في كتاب حضارة الاسلام لجب ص ٩٤

(١٥) مقالات في تاريخ النقد ١٥١

١ . الحكم بموضوعية على الاشعار دون التأثر بأراء العلماء المسبقة والابتعاد عن تقليدهم .

(ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد او مستحسن باستحسان غيره)(١٦) .

٢ . عدم التأثر بمكانة الشاعر الاجتماعية . فقد نال كثير من الاشخاص شهرة بسبب نشاط مآرسوه في الحياة السياسية او الاجتماعية او الفكرية . اما ابن قتيبة فقد وعد بتطبيق مبدأ العدالة في اختيار الاشعار الجيدة . (فكل من اتى بحسن من قول او فعل ذكرناه له . واثنينا عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله او فاعله ولا حداثة سنه . كما ان الردىء اذا ورد علينا للمتقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه)(١٧) .

وبذلك اخرج اشعار كثير من الفقهاء والصحابة والولاة ممن نقلت عنهم اشعار قالوها عرضاً وما كانوا في حقيقتهم شعراء الا ان شهرتهم او احترام الناس لهم جعل اشعارهم متداولة فنص ابن قتيبة بأنه لم يعرض في كتابي الا لمن كانت شهرته لما قاله من اشعار جيدة : (ولم اعرض في كتابي هذا لمن كان غلب عليه غير الشعر فقد رأينا بعض من الف في هذا الفن كتاباً يذكر في الشعراء من لا يعرف بالشعر . ولم يقل منه الا الشذ اليسير كآبن شبرمة)(١٨)

ابن قتيبة هنا يدعو الى اختيار الجيد من الاشعار بغض النظر عن زمانه الذي عاش فيه او مكانته الاجتماعية او السياسية فبلغت عنده فكرة الانتصاف للشعر المحدث مرحلة التطبيق العملي في اشراكهم في تراجم كتابه والاختيار لهم ومثل مرحلة مهمة من مراحل التأليف الادبي من جهة اخرى.ومنهجه الذي صرح به هو اعتماد معيار الجودة في اختيار الاشعار والشعراء دون النظر الى قدم الشاعر او حداثته ودون التأثر بمكانته الاجتماعية او الدينية قائلاً :

(ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين واعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم

---

(١٦) الشعر والشعراء

(١٧) المصدر السابق ١١

(١٨) المصدر نفسه ٩

قائله وضعه في مُتحيزه ويذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه او انه رأى قائله)(١٩) وسبب اختيار ابن قتيبة هذا المنهج حجتان مقنعتان هما : ـ

١. ان الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوما بين عباده في كل دهر .
٢. ان كل قديم كان محدثا في زمانه كما ان كل مايعد محدثا في زمن ما سيصير قديما بمرور الايام والسنين وقد ضرب لهذا شواهد من الشعر العربي حيث كان جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمرو بن العلاء يقول لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقدهممتبروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منه وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخزيمي والعتابي والحسن بن هاني واشباههم .

وبذا اختار ابن قتيبة الجودة مقياسا في اختيار من يترجم له من الشعراء قائلا (فكل من اتى بحسن من قول او فعل ذكرناه له واثنينا به عليه ولم يضعه عندنا تأخر قائله او فاعله ولاحداثة سنه كما انالرديء اذا ورد علينا للمتقدم او الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه)(٢٠)

بنية القصيدة :

ودعوة ابن قتيبة هذه . تعد رائعة لو كان شفعها بتطبيقات في الشعر العربي او في القصيدة العربية عموما . ولكنه اكتفى بها نظريا وطبقها من خلال تراجم الشعراء المحدثين الذين ترجم لهم مع تراجم الشعراء القدماء دون ان يشفعها بملاحظات نقدية او تحليلية كما فعل الجاحظ ونجده أكثر من هذا يتناسى دعوته الى انصاف المحدث حين يتحدث عن بنية القصيدة العربية معللا ـ نقلا عن شيوخه ـ سبب افتتاحيتها بالبكاء على الاطلال والانتقال منها الى الغزل ثم الاغراض الشعرية الاخرى المعروفة ويختم حديثه بحكم نقدي يلزم فيه الشعراء المحدثين بشكل القصيدة التقليدية قائلا : (فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب وعدل بين هذه الاقسام فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد)(٢١) وهذا يعني ان موقف ابن قتيبة من

---

(١٩) الشعر والشعراء ١ / ٢٣ وانظر مقالات ١٥١

(٢٠) نفسه ١ / ١

(٢١) الشعر والشعراء ١ / ٢٢

الشعراء الذين يحاولون الخروج على شكل القصيدة التقليدي لن يكون مخالفا لموقف علماء اللغة ورواة الاشعار المتعصبين للشعر القديم فيجعل بنية القصيدة الجاهلية التقليدية أسرا وطوقا لايبيح للشاعر الخروج عليه لالشيء لان القدماء انتهجوه وبهذا يقول مؤكدا هذه البنية التقليدية (وليس لمتأخر الشعراء ان يخرج عن مشيد البنيان لان المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي او يرحل على حمار او بغل ويصفهما لان المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير او يرد على المياه العذاب الجواري لان المتقدمين وردوا على الاواجن الطوامي او يقطع الى الممدوح منابت النرجس والاس والورد لان المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة)(٢٢)

وينقل ابن قتيبة لنا محاورة تتبين فيها دعوته الى الالتزام بالشكل الفني للقصيدة القديمة ولمقدمتها الغزلية خاصة . فقد قال خلف الاحمر . قال لي شيخ من اهل الكوفة اما عجبت من الشاعر قال :

(انبت قيصوما وجثجاثا)

فاحتمل له وقلت انا :

(انبت اجاصا وتفاحا)

فلم يحتمل لي

مما يفهم منه اصرار على الالتزام بحرفية الشكل التقليدي . وقد وصف هذا الاصرار بالتناقض مع دعوته الى انصاف المحدث الذي يرى ان من حقه فسح المجال امامه للتعبير عن حياته الحضرية باساليبها ومظاهرها وانه (يحرم عليهم ان يشعروا . وان يصفوا ماتقع عليه عيونهم .. وان هذا التناقض بين دعوتيه يبين لنا مقدار وفاء ابن قتيبة لما وعد به من التزام العدل والانصاف فقد كانت دعوته الى التجديد في حقيقتها تقليدا في ذم التقليد)(٢٣) . ويوضح د . احسان عباس فكرة التجديد الشكلي التي هي بحد ذاتها تقليد ايضا (ومن الذي ينكر ان استعمال الحصان و الحمار بدل الجمل وذكر الاجاص والتفاح بدل الشيح والعرار لايكون تقليدا مستهجنا مضحكا ؟)(٢٤)

---

(٢٢) نفسه ١ / ٢٢

(٢٣) دراسات ٢١٧

(٢٤) تاريخ النقد ١٦٢ وانظر أيضا الرأي نفسه في تاريخ النقد العربي

ان الدعوة الى تقليد القديم والزام الشعراء بعدم استبدال اي اسلوب من اساليب القدماء يمثل جانبا من جوانب التعصب للقديم والذي كان مرده الى ذوق ابن قتيبة نفسه والا فأن بدايات التجديد في القصيدة العربية من خلال مطالعها تدل على قصائد ومحاولات حاول اصحابها استبدال وصف الناقة بوصف السفينة مثلا وان كانت الاخيرة تمثل بديلا شكليا ايضا مايزال يدور حول الاطار التقليدي للقصيدة العربية اذ لابد من رحلة ـ على هذا الاساس ـ يقطعها الشاعر على ناقة او فرس فاذا اراد التغيير فلتكن السفينة التي حملها الشاعر مواصفات الناقة كما حمل النهر مواصفات الصحراء(٢٢)

ان تعليل ابن قتيبة للمقدمة الغزلية وتعدد الاغراض في القصيدة العربية حره الى الحديث عن الشكل الفني المتكامل للقصيدة والنموذج الاكمل لدى النقاد والادباء فما دام هذا الشكل الفني قد استقر وارتضاه الشعراء والنقاد وجب على الشعراء ان يتقيدوا بضوابط توفيقية بين الاغراض المتعددة فلا يجوز لشاعر مثلا ان يطيل مقدمة القصيدة ويسهب في الغزل على حساب المديح او الفخر . وانما تكون اجزاء القصيدة متماثلة قصرا وطولا ويستنبط حكمه ليصدر قاعدة عامة يلزم الشعراء بها وقد التزموا بها فعلا من قبل بقوله (فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب ودل بين هذه الاقسام بين هذه الاقسام فلم يجعل واحدا منها اغلب على الشعر . ولم يطل فيمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ الى المزيد)(٢٣) ويضرب لهذا مثلا طريفا . نستنتج منه ان الشاعر والسامع ـ الممدوح ـ قد ارتضينا هذا الشكل الفني واستنبط مقياس المعادلة بين الاغراض المتعددة وذلك ان بعض الرجاز (اتى نصر بن سيار والى خراسان فمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت . ومديحها عشرة أبيات . فقال نصر والله مابقيت كلمة عذبة . ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك . فأن اردت مديحي فاقتصد بالنسيب . فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدار لام الغمر
دع ذا وحبر مدحة في نصر

---

(٢٥) انظر في هذا المقال (القصيدة العربية بين الثورة والتجديد) د . ابتسام مرهون ـ مجلة المناهل العدد ١٧ / ١٩٨٠ .

(٢٦) الشعر والشعراء ١ / ٢١

فقال نصر : (لاذاك ولا هذا . ولكن بين الامرين)(٢٧) وقد كان نصر ـ الممدوح ـ نفسه شاعرا ونقده للراجز يؤكد ماذهب اليه ابن قتيبة الذي اورد هذه الرواية ليقول ان هذا الشكل الفني للقصيدة العربية جعلها متماسكة مترابطة الاجزاء وان اي اطالة في جزء منها يضيع هذه الوحدة ويفتتها وحكمه هذا متأت من استقصائه لشواهد الشعر العربي الجيد . وفي وقفته (عند مبدأ التناسب يرينا انه يحس احساسا دقيقا بالطول المعين الذي لا بد للقصيدة ان تحافظ عليه)(٢٨)

حالات الشاعر وبواعث قول الشعر :

من المباحث المهمة التي سجلها ابن قتيبة في مقدمته النقدية مايتعلق بدواعي الشعر والعوامل المعينة على بعث الغريزة الشعرية او تنشيطها فبين اولا ان الغريزة الشعرية قد ينتابها الكلل والخمول في بعض الاحيان مثلما ينتاب الانسان في حياته العادية (وللشعر تارات يبعد فيها قريبه ويستصعب فيها ريضه وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات . فقد يتعذر على الكاتب الاديب وعلى البليغ الخطيب . ولا يعرف لذلك سبب الا ان يكون من عارض يعترض على الغريزة)(٢٩)

فالغريزة الشعرية شأنها في ذلك شأن النشاط الانساني العام قد ينتابها الخمول فيعاني الشاعر من عصيانها مايعاني ويحاول ان ينشط ذهنه ويذكي فكره ويتمثل ابن قتيبة بقول الفرزدق (انا اشعر تميم وربما أتت علي ساعة . ونزع ضرس اسهل علي من قول بيت)(٣٠) ولم يكن ابن قتيبة اول من وقف على هذه النماذج او اول من اشار اليها فقد سبقه من قبل بشر بن المعتمر في صحيفته التي اوردها الجاحظ في البيان والتبيين والتي أورد فيها جملة نصائح للمتأدب والشاعر كان منها وجوب تصيد المتأدب فترة نشاطه الفكري فأن لم تسعفه موهبته على الابداع امهلها ولجأ الى ترويح نفسه وغريزته . فالترويح والنشاط وتصيد اوقات الراحة كلها تعين الغريزة على الابداع . فأن لم تسعف الاديب غريزته بعد هذه المحاولا ت فلا بد ان تكون موهبته متجهة الى ابداع اخر غير الشعر والادب بقول بشر (فأن ابتليت بتكلف القول وتعاطي الصناعة ولم تسمح لك الطبيعة في اول وهلة . وتعصي عليك اجالة

---

(٢٧) نفسه

(٢٨) تاريخ النقد / احسان عباس ١١٢

(٢٩) الشعر والشعراء ١ / ٢٥

(٣٠) المصدر نفسه

الفكرة فلا تعجل ودعه سحابة يومك ولا تضجر وامهله سواد ليلتك . وعاوده عند نشاطك فأنك لاتعدم الاجابة والمواتاة ان كانت لك طبيعة وجربت من الصناعة على عرف وهي المنزلة الثانية فأن تمنع عليك بعد ذلك مع ترويح الخاطر وطول الامد فالمنزلة الثالثة ان تتحول عن هذه الصناعة الى اشهى الصناعات اليك . واخفها عليك فأنك لم تشتهها الاو بينكما نسب)(٣١)

ويتناول ابن قتيبة هذا الجانب المتعلق بمجالات الاديب والمبدع فيتحدث عن الاوقات التي تعين الشاعر على استرسال موهبته وصفاء ذهنه فذكر منها (اول الليل قبل تغشي الكرى ومنها صدر النهار قبل الغداء ومنها يوم شرب الدواء ومنها الخلوة في الحبس والمسير ولهذه العلل تختلف اشعار الشاعر ورسائل الكاتب)(٣٢)

فحالات الشاعر النفسية واوضاعه الشخصية تؤثر في ابداعه ومدى اجادته وما على الشاعر الا ان يعين قريحته ويختار مايلائمها يهيىء لها الجو النفسي للنشاط والوعي .

واذا كانت بواعث اخرى تؤثر في انتاجه الفنية وتحفز فيه الرغبة على القول أو فلنقل تشير فيه دوافع القول وكوامن الرغبة . وقد تحدث الادباء قبل ابن قتيبة عن هذه البواعث في اقوال واخبار متناثرة منها ماورد في صحيفة بشر بن المعتمر (النفوس لاتجود بمكنونها ولاتسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع الرغبة والمحبة)(٣٣)

ودعا الجاحظ الى التماس البيان والتبيين ان ظن المتأدب له فيهما طبيعة(٣٤) فطبائع الناس ومواهبهم متفاوتة وما على الانسان الا ان يصرف موهبته و مايميل اليه ومايمكن ان يبدع فيه فقد يكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والاسجاع . ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر ومثل هذا كثير جدا(٣٥)

ونصح ابن المدبر الكاتب برصد ساعة نشاطه لانها تعينه على ابداع مايمتنع عليه قوله ساعة الكد والتعب مقتبسا عبارة بشر بن المعتمر السابقة : (وارتصد

---

(٣١) الرسالة العذراء ٢٤٠ وانظر نصوص ٤٣

(٣٢) الشعر والشعراء ١ / ٨٤ (دار المعارف بمصر)

(٣٣) نصوص النظرية النقدية ٣٤ . عن البيان والتبيين ١ / ١٣٥

(٣٤) البيان والتبيين ١ / ٢٠٠ نصوص النظرية ٣٨

(٣٥) نفسه ٢٠٨

لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف لان سماحة النفس بمكنونها وجود الاذهان بمخزونها)(٣٦)

ورأى ان بواعث القول الادبي تظهر في دافعين هما الغضب والطرب فقد قيل لبعضهم لم لا تقول الشعر ؟ قال : كيف اقوله وانا لااغضب ولا اطرب(٣٧)

وهناك اقوال اخرى لشعراء تحدثوا عن الدوافع التي تبعثهم على قول الشعر وهنا يأتي حديث ابن قتيبة في هذا الموضوع مهما يجمع فيه الاسباب الداعية الى قول الشعر من خلال رصده لاقوال الشعراء وتجاربهم (وللشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلف منها الطمع . ومنها الشوق . ومنها الشراب . ومنها الطرب . ومنها الغضب(٣٨) . ولكن الشعراء يتفاوتون في مدى استجابتهم لها واندفاعهم الى قول الشعر باحداها فقد كان باعث الحطيئة على الشعر الطمع والرغبة في العطاء . واحمد بن يوسف الكاتب كان دافعه لقول الشعر الرغبة في العطاء وهذا طمع ايضا . وارطأة بن سهية كان دافعه بعث لغريزة الطرب او الغضب .

ويروي ابن قتيبة خبراً عن شاعر يستدل منه ان شعور النفس بالشرور والرضى والراحة يدفعه الى انشاد الشعر فاذا يئس او مر بظروف سيئة خبت موهبته واعتاصت عليه فقد قيل له حين اسر : انشد : قال : الانشاد على حين المسرة .

كل هذه الاخبار التي اوردها ابن قتيبة عن الشعراء تدلنا على انتباهه الى هذا الجانب من عملية الابداع الشعري التي يكون فيها للظروف النفسية اثر كبير على غزارة انتاج الشاعر او فتوره . كما ان دوافع القول تبدو مختلفة باختلاف الشعراء او لذلك تنوعت هذه الدوافع من خلال الاخبار التي اوردها ابن قتيبة وكأنه يشير الى ان الشعراء متفاوتون فيما يحفزهم على قول الشعر . طربا او خوفا . غضبا او سرورا او رغبة في العطاء وغير ذلك مما تلمحه في الروايات التي اوردها عن الشعراء .

---

(٣٦) الرسالة العذراء ٢٤٠ . وانظر نصوص النظرية ٤٣

(٣٧) نفسه

(٣٨) الشعر والشعراء ١ / ٢٣